

خصائص التركيب اللغوي في النصوص الشعرية للمقري

أ. بدرة فرخي

جامعة الإخوة منتوري-قسنطينة

مدخل نظري

ولد أحمد بن محمد بن أحمد المقري والملقب بشهاب الدين المقري في تلمسان سنة (986هـ . 1578م)، كما تتقف فيها وقد ظل وفيماً لهذا التكوين الأصلي حتى وهو يتمتع بالجاء والحظوة في القاهرة ودمشق، وكانت مصادره تعتمد أساساً على الروايات، ومعارفه كشاهد عيان لما وقع في الأندلس في حياته أو ما أخذ من الجيل الذي سبقه من أهل الأندلس المطرودين..¹

ومن الواضح أن إنتاج المقري غزير وحياته خصبة وتأثيره كبير، وكان يذكر محاسن تلمسان وجمالها وهو في المغرب والمشرق وكان يقارنها بفاس ودمشق. وتؤكد بعض الدراسات أن الفتن التي عاشتها الجزائر في بداية العهد العثماني هي السبب في هجرة المقري نهائياً من تلمسان إلى فاس.

ومن جملة ما أبدع المقري قوله:

بلد الجدار ما أمر نواها كلف الفؤاد بحبها وهوها.

يا عاذلي في حبها كن عاذري يكفيك منها ماؤها وهوها.²

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب مصنف ألفه المقري التلمساني، يعد أحد أقدم الكتب الأندلسية ظهوراً للنور، وهو موسوعة تاريخية مهمة في دراسة التاريخ والأدب والجغرافيا الخاصة بالأندلس. وقد صرح المقري بمقدمة كتابه أنه ألفه إجابة لطلب الإمام المولى الشاهيني أستاذ المدرسة الجقمقية في دمشق، وقال: «وعزمت على الإجابة لما للمذكور علي من الحقوق، وكيف أقابل بره حفظه الله بالعقوق، فوعدته بالشرع في المطلب عند الوصول إلى القاهرة المعزية». وجعل عنوانه أولاً "عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب" فلما رأى مادته قد اتسعت لتشمل الأندلس أدباً وتاريخاً، عمد إلى تغيير عنوانه ليصير "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب".

وجاء هذا الكتاب على جزأين، جزء يتحدث عن الأندلس والمدن الأندلسية وسكانها، ووصف مناخها وتوضيح مساحتها وتحديد أراضيها وأول من سكنها، ووصف سكان الأندلس وحبهم للعلم والأدب وسلوكياتهم وخصوصياتهم الاجتماعية، والشأو البعيد الذي بلغوه في مجال العلوم والآداب. والجزء الآخر عن أخبار الوزير ابن الخطيب.

اعتمد المقرئ في كتابه على مصادر لم يصلنا منها سوى القليل كالمغرب لابن سعيد، ومطمح الأنفس لابن خاقان، والمطمح الكبير. انتهى المصنف من الكتاب يوم الأحد 27 رمضان 1038 هـ ثم ألحق به فصلاً أتمها في ذي الحجة سنة 1039 هـ، وكان قد ألف كتابه هذا وهو في القاهرة مغترباً عن بلده تلمسان (في الجزائر اليوم).³

أما فيما يخص عنوان الكتاب الرحلة، وهو رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق، يذكر المحقق في المقدمة أنه لم يعثر على كتاب بهذا العنوان ضمن قائمة مؤلفات المقرئ التي وضعها مترجموه القدامى والمحدثون، كما انعدمت الإشارة إلى أي عنوان في ثنايا الرحلة من طرف المؤلف. ويؤكد هذا الإشكال محقق الرحلة الذي اعتمد نسخة واحدة في التحقيق مبتورة البداية والنهاية، إلا أن ما يمكن الاطمئنان إليه هو أن كتباً أخرى للمؤلف لا تزال في حكم المفقود، وأن بعض عناوينها تبعث على احتمال تطابقها مع محتوى الرحلة مثل كتاب الغث والسمين والرت والثمين، والبداة والنشأة، وغيرهما.

يستفاد من محتوى الكتاب أنه من المؤلفات الأخيرة التي وضعها المقرئ، حيث ذكر أن أحمد ابن شاهين وهو الذي اقترح عليه تأليف كتاب نفح الطيب، قد استدعاه إلى بيته في محرم سنة 1041 هـ حين زار دمشق للمرة الثانية، قبل عودته إلى القاهرة ووفاته بها في جمادى الثانية من السنة نفسها، فالمدة الواقعة بين التاريخ الوارد في الكتاب وبين وفاته أقل من خمسة أشهر، ويبدو أن أخبار المقرئ قد انقطعت ابتداء من أواخر ربيع الأول سنة 1041 هـ وهو التاريخ الذي بعث فيه رسالة إلى شيخه محمد الدلائي صاحب الزاوية الدلائية .

4

يحتوي كتاب الرحلة على معلومات هامة، تتعلق بحياة المقرئ الشخصية في تلمسان والمغرب الأقصى ومصر والشام والحجاز، يعالج في الرحلة الحياة الثقافية والأدبية في عصره، وتتضمن الرحلة معلومات تاريخية عن بلاد المغرب وأرض الحجاز واليمن، وبعض القضايا الفقهية والعقدية وغير ذلك .

وما يلاحظ عموماً هو أن الرحلة لم تكن مجرد مشاهدات سياحية كما هو الشأن في أدب الرحلات، ولم تكن أيضاً صادرة عن حاجة سياسية أو طائفية وإن خالطت الرؤية الذاتية التي اتسعت عبر الرحلة لتغدو معبرة عن السياسة والاجتماع، فالمقري لم يعن كثيراً بوصف ما شاهده من مظاهر العمران في المدن التي زارها في المشرق أو المغرب، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن هذه المظاهر أضحّت من الأمور المعروفة لدى الناس؛ فلا تصوير للمؤسسات السياسية أو الاقتصادية، ولا وصف للشوارع والحدائق والساحات العامة، وإنما التفت المقري إلى أعمق من ذلك، إلى مظاهر الحياة العلمية، فوصفها وصفاً ينم عن خبرة وثقافة عاليين لم نلمسهما عند من سبقه من الرحالين⁵ جديد ما يتضمنه كتاب الرحلة :

يتمثل جديد ما يتضمنه كتاب الرحلة في خصوصية المعلومات المتصلة بجانب تتعلق بحياة المؤلف الشخصية، الأمر الذي يجعل طروحات مترجميه في حاجة إلى مراجعة وتدقيق، فقد ذكر مترجموه القدامى والمحدثون، مثلاً، أنه بنى بامرأتين فقط وهما زوجته المغربية التي بنى بها أيام إقامته في فاس وولدت له أنثى سنة 1026هـ كما أخبرنا في هذه الرحلة، وحين رحل إلى المشرق ترك المرأة وابنتها ولم يعد إليهما، وأما الزوجة الثانية فهي مصرية من عائلة السادات الوفائيين وقد بنى بها عندما استقر في القاهرة. غير أن نصوص الرحلة تفيد بأنه تزوج بثلاثة نساء وليس اثنتين فقط، فقد بنى قبل المغربية والمصرية بامرأة تلمسانية وهي بنت المفتي محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني مفتي تلمسان وفاس، ولم يخبرنا المؤلف فيما إذا كان زواجه منها قد تم بتلمسان أو في مدينة فاس وتاريخ ذلك.

وأما أولاده فقد أخبرنا مترجموه أن المقري لم يرزق طوال حياته سوى بأنتين فقط، بنت المغربية والتي عاشت حتى تزوجت، وبنت المصرية التي توفيت صغيرة، وأنه لم ينجب ذكراً، ولكن نصوص الرحلة تثبت العكس، فهي تؤكد أنه رزق بذكر من زوجته المصرية واسمه محمد المكي، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في ثلاثة مواطن من الرحلة، وقد مات ولده صغيراً وقد تلقى المقري سيلاً من رسائل التعزية أورد بعضها المتعلق بابنته في نفح الطيب .

أما عن أسباب رحلته من المغرب الأقصى إلى المشرق، فقد اضطرت حولها الآراء، واختلفت الأقوال، وإن كانت في مجملها تتفق على أنها سياسية، ومنها أن سلطان المغرب هو الذي أجبر المقري على مغادرة المدينة، وأنه خرج متخفياً، وهو رأي غير سديد بدليل ما ورد في الرحلة من أن المؤلف هو الذي استأذن ملك المغرب صاحب فاس وهو الغالب بالله

عبد الله بن المأمون في السماح له بالرحيل. وقد أذن له في ذلك وكتب في شأنه رسالة من إنشاء محمد بن أحمد الفاسي إلى سلطان الحجاز شريف مكة يخبره عن قدوم المؤلف إليه ويبلغه عن علمه وفضله ومكانته ويوصيه به خيراً .

كما أن هناك مسألة هامة تتعلق بنزول المقرئ مدينة الجزائر وتونس وسوسة واتصاله بعلماء هذه المدن وهو في طريق الرحلة من المغرب صوب المشرق. وباستثناء إشارة المقرئ في منظومته فتح المتعال إلى أنه نزل بهذه المدن فإن بقية المصادر لم تشر إلى ذلك قط، لكن نصوص الرحلة تؤكد لنا نزوله بهذه المدن واتصاله بعلمائها وتواريخ ذلك، إذ يخبرنا المقرئ أنه نزل بالجزائر العاصمة يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة 1027 هـ، حيث خرج إلى رأس تافورة صحبة جماعة من الأعيان منهم مفتي الحنفية الخطيب محمود بن حسين بن قرمان، والشاعر الأديب محمد بن راس العين الذي تبادل معه نظم الشعر بمناسبة هذا الاجتماع، كما التقى بعالم الجزائر وفقهها الشيخ سعيد قدورة (ت 1066هـ)، الذي كان قد رافقه في الأخذ عن عمه سعيد المقرئ⁶. ومن جملة ما قال المقرئ في مدح مدينة الجزائر المحروسة وعلمائها:

جزائر الغرب لا تطرقك أحزان*

***يا بهجة الجهر طابت منك أزمان**

وزادك الله يا أرض الجهاد على

***فكم علا فيك إسلام وإيمان**

وصانك الله من كيد العدى وغدا

***للنصر والعز في مغناك إيمان**

وزانك الله بالشيخ الذي بهرت

***علومه أوجد العليا سليمان**

فاعذر محباً قصير الباع مغترباً

***عن معهد الأنس والأحباب قد بانوا⁷**

- الدرس التطبيقي

إن الإشكال الذي تطرحه هذه المداخلة هو:

كيف تمثل المقرئ أشكال التصوير الشعري في عصره؟

ويتفرع عن هذه الإشكال الأسئلة الفرعية التالية:

1- هل استجاب الوصف اللغوي الشعري عند المقرئ لتداعيات البنيوية النسقية والسياقية على الترتيب؟.

2- بحكم المرجعية الثقافية للمقرئ الذي حاول الاستفادة من جميع العلوم التي وجدت في عصره، هل يمكن اعتبار هذه المرجعية مرجعية علمية أكثر منها أدبية جمالية؟.

3_ هل يحيل الطرح السابق إلى حقيقة نسقية الدوال في النص الشعري والتي تعني اكتفاء الكتابة الشعرية برؤية واقعية ترفض الخيال وتقره حضوره؟.

4- ما موقع التأويل السياقي في ضوء النصوص المقترحة؟.

5- هل يمكن أن نؤسس انطلاقاً من دراسة النصوص الشعرية لمبدع أحادي البعد كما يقول محمد برادة في وصفه للغة الإعلامية، وبالتالي يكون تصنيفنا للأسلوب في ضوء طرحات المحدثين أمراً لا بد منه؟

يقوم الوصف التركيبي على متابعة الإجراء النحوي في ضوء دراسة نسقية تعتمد مفهوم النظام أساساً لتفسير مفهوم العلامة اللغوية وقيمتها داخل النسيج الذي تنتمي إليه ومحاولة دراسة جزئيات الظاهرة اعتماداً على تقنيات لغوية قاعدية تكشف عن طبيعة العلاقات.

ولما كان النحو هو العلم الذي يكشف عن خبايا المباني اللغوية ومبدأ تعالقاتها بمختلف معانيها ومضامينها فدالاتها وجب تحديد طبيعة التجاور والتوزيع اللغوي ومن ثمة تحديد الفئة التي تحدد انطلاقاً من النسق.

والمأمل في سيرورة الدراسات الأدبية يجدها تعكس لا محال فكرة النسق؛ إذ تشيع هذه الأخيرة في الدراسات النقدية البنيوية الحديثة، والنسق ظاهرة تتضح من خلال التميز والتكرار، وتتضح هذه النقطة إذا أخذنا مجموعة الأرقام وحاولنا تحديد النسق المتكرر فيها. يبدو جلياً أن النسق هنا ينبع من التمايز بين رقم 1 وبقية الأرقام المستخدمة من جهة، ثم من تكرار الرقم 1 في حيزات محددة وعلى مسافة محددة من الأرقام التي تتلوه بالطريقة التالية:

(x....x....x....x) أما إذا حدثت مجموعة الأرقام نفسها بالطريقة التالية فإن الحديث

عن تشكل نسق نابع من علاقة الرقم 1 بغيره من الأرقام يصبح مستحيلاً، لأن الرقم 1

يطغى بشكل تام على مجموعة الأرقام ويكتسب تكراره صفة لا نهائية تعدم التمايز والتضاد بينه وبين الأرقام بشكل لا يسمح بتشكيل نسق محدد⁸.

فالتشكل والتكرار هما أساس هذا الوجود النسقي الذي طوره رومان جاكبسون تأسيساً على معطيات علم اللغة المعاصر، وقد تنبه ريتشادز من قبل إلى شمولية هذا النمط واتساعه إذ اتضح له استحالة اعتبار الإيقاع أو الوزن كما لو كانا لا يتعلقان إلا بالناحية الحسية للمقاطع، وكما لو كان من الممكن فصلهما عن المدلول وعن التأثيرات العاطفية التي تنشأ عن طريق المدلول، واتساع مفهوم النسق عند ريتشادز هو الذي دفعه لأن يجعل الشعر شأن التصوير تفضل فيه دائماً الوسائل المباشرة على الوسائل غير المباشرة، وتشكل النسق وانحلاله ينطوي على صفة أساسية في الشعر إذ عن طريق المفاجأة والدهشة، أو المفاجأة والتوقع، أو المفاجأة وخيبة الظن تحدث حالة التتويم أو الاستسلام إلى حد الغياب في النص الشعري يتسم بتشكيل النسق وفي هذا الصدد يبدي كولردج إحدى ملاحظاته الجزئية العابرة التي هي كالمعتاد قريبة جداً من الصدق وإن لم تكن عين الصدق، فهو يقول: إن الوزن ينزع إلى زيادة الحيوية والحساسية في المشاعر العامة وفي الانتباه...⁹

وعلى كل حال فإن ما استقر عليه العرف النقدي هو أن للشعر خصائص تنظيمية تميزه عن أي بناء لغوي آخر، وتحديد النسق ينبع من طغيان ظاهرة لغوية في التركيب الشعري، يبرز من خلال تكررها ودورها الإيقاعي الذي يشكل المعنى تشكلاً خاصاً، والنسق بهذا المفهوم يبدأ من الفونيم باعتباره أصغر عنصر لغوي ماراً بالصيغة والتركيب الجزئي وينتهي بالنص الشعري باعتباره تركيباً لغوياً كلياً¹⁰.

وتتجه الدراسات التركيبية نحو تبني مفهوم التجليات اللغوية في ضوء مفهوم التباين الموجود بين مختلف مظاهر التعالق التي تحقق نوعاً من التماسك على مستوى الوحدة الصغرى وهو حقل تتقاطع فيه عدة علوم نذكر منها البلاغة والأسلوبية وعلم النفس والاجتماع.

ومما لاشك فيه أن هذه الدراسات قد تبلورت حديثاً فيما يسمى بنحو النص الذي يعد أحد فروع اللسانيات الحديثة يجسد ممارسة ميدانية تستهدف النصوص بنوعها المكتوبة والشفوية، إذ يكشف عن نمطية الترابط بين وحدات النص،... ليختص في ذلك كله بدراسة البنية النصية.¹¹

فهو إذن الفرع الذي يهتم بدراسة النص باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عديدة كالترابط والتماسك ووسائله، وأنواعه، والإحالة، أو المرجعية *référence* وأنواعها، والسياق النصي *textuel contexte*، ودور المشاركين في النص (المرسل والمستقبل)¹².

وتتصل مقومات البنية الاتساقية بالمساق أي بالنسيج الداخلي للنص، فلهذا الأخير بنية تطول أو تقصر تمثل سطحه الذي يشغل حيزا يكون به كائنا مستقلا بنفسه، فيحل بذلك في الزمان والمكان من خلال انتظام كلماته ومركباته وجمله، مشكلة بذلك سلاسل جمالية أو بنيات كبرى تتعالق فيما بينها وتتألف بروابط نحوية ومعنوية مختلفة تشكل مجال نحو النص الذي مداره الترابط بين أبنية النص الصغرى (المركبات والعبارات والجمل) والكبرى (الجمل المركبة والقطع وال فقرات) ومن هذا المنطلق يحتل الربط النصي مكانة بارزة في اتساق النص، فهو الأساس الذي يقوم عليه تشكيل النص وتفسيره، وبدونه لا تقوم للنص قائمة؛ إذ بدونها يصبح النص مجرد ركام من العبارات والجمل والقطع والفقرات التي لا تؤسس لأي غرض تبليغي... لذا وجه منظرو نحو النص كل عنايتهم لدراسة الروابط النصية محاولين حصرها وتصنيف أنواعها وبيان وظائفها... فالنص غالبا ما تعكس خطيته مؤشرات لغوية تقوم بين مركباته وجمله وفقراته مثل الروابط النحوية المختلفة: كحروف العطف والوصل والفصل، والروابط الإحالية المختلفة والروابط السببية، والعلاقات الزمانية والمكانية والحالية وغيرها من الروابط النحوية واللفظية¹³ تباينت روابط النصوص الشعرية عند المقري بتباين تشكيلاتها الخطابية والتي اتجهت في عمومها نحو غرض المدح والإشادة بالأمجاد والتعني بالبطولات. وتعتبر الإحالة النصية من أهم مظاهر الاتساق، وتنقسم إلى إحالة قبلية تعود على مفسر سبق التلفظ به، وإحالة بعدية تعود على عنصر إشاري مذكور بعدها في النص، وقد اختلف نحاة النص في زمرة وسائل الاتساق الإحالية، فقد قصرها هاليداي ورقية حسن على الضمائر وأسماء الإشارة وصيغ المقارنة¹⁴.

وتتحدد روابط الإحالة في النص التالي:

جزائر الغرب لا تطرقك أحزان*

يجسد المقري ضميرا متصلا في الفعل (تطرق) يعود على الجزائر محققا بنية لغوية محكمة تتجاوز التكرار اللفظي الذي يكسر مألوفية النظم وبلاغته وفصاحته (جزائر الغرب لا تطرق جزائر الغرب أحزان).

وهي إحالة إلى التعالق الموجود بين وحدات النص وبالتالي نسقيته المتضامنة التي تؤكد مبدأ الربط الذي يحيل إلى وحدة أعمق تستجيب لها المرجعية النفسية والواقعية والتاريخية في بعدها الأعمق الشارح لمفهوم الانسجام والذي يكمل مبادئ الطرح الاتساقى ويفسره. ومن جهة أخرى يعتبر ضمير المتصل (ك) فونيميا يحقق بعده البراغماتي في البنية اللغوية تطرقك من جهة ويغني عن ذكر المركب جزائر الغرب كتأكيد على مصداقية الفونيم الذي يتنامى في طبيعة التخاطب الذي يشخصه المقري ويجعل من جزائر الغرب؛ من تلمسان مخاطبا مقصودا ومرغوبا في مخاطبته عن قرب؛ فالمسافة بينهما لم توغل في البعد وكأنه لا يزال في موطنه، في أرضه، مع أهله وأصحابه وليكفه مأوها أو هواها، تكفيه نسمة عابرة تذكره بالانتماء والهوية... لا تزال شاخصة في نفسه في قلبه وعقله، حبها لم يفارقه برهة، بغى بقاء دائما ولهفة إلى الماضي. فراح المقري يثبت شوقه وحسرتة بدليل أن بعد سفره إلى فاس واستقراره سنوات هناك اعتزم سفرا إلى المشرق، وخلال هذه الرحلة نزل بالجزائر العاصمة، والتقى بعالمها الفقيه سعيد قدورة وقال في الجزائر الأبيات السابق ذكرها.(جزائر الغرب...).

والمتمأمل في الأبيات السابقة يجد بأن ضمير المخاطب المتصل(الكاف) قد ورد سبع مرات كإشارة إلى حضور قوي تغلبت فيه الجزائر وطنا تسكنه روحه قبل جسده فهو موطن نشأته وثقافته وتفقهه وتعلمه. وهو المنحى الذي يرجع منطقية الهجرة الإيجابية التي واجهها المقري؛ فلم يكن مخيلا بين البقاء والرحلة من أجل العلم ومجالسه وبخاصة أن الثقافة المغربية كادت تكون واحدة. لا يعقل أبدا أن تكون الرحلة العلمية مانعة للعودة إلى الوطن والاستقرار فيه إلا إذا كانت هناك سلطة تمنع ذلك أو تمارس ديكتاتورية معينة تلزم بالطاعة أو المنفى المرير وأظنه ما أصاب العلامة التلمساني إبان حكم العثمانيين.

إضافة إلى لفت الانتباه إلى الكلمة السابقة وهي الجزائر التي تشغل الخانة البؤرة وتدور حولها بقية العناصر اللغوية شرحا تراتبيا أو ارتباطا تعالقيا يوحد بين الوحدات والعوامل:
اللفظ : الجزائر ← المخاطب المباشر (حضور شكلي ودلالي تام).



التعالق والتناسل اللغوي يعود إلى بؤرة الموضوع: تنامي قيمي تفصيلي يأخذ بالعد التنازلي والتصاعدي ويؤكد على تواصل محدود المسافة. بمعنى أن المقرري لم يصل إلى مرحلة الغرق في غريته وتكبد آلام نأيه، وكأنها المرحلة الأولى من حزن عظيم يقاومه أبو العباس في شعره فيستأنس بضمير متصل مخاطب يخفف حدة بداية بدأت ترسم معالم المعاناة.

ويسمح هذا الانتقاء بتجاوز ضمائر أخرى وبخاصة الضمائر المتصلة الغائبة؛ فهي في منزلة تنزيل البعيد جدا منزلة القريب الذي يسكن عالما بين ويتوجع على فرقة أحبابه وأهله وقد بات يرى غريته بئس الأنيس الذي عشنش في معالم رحلاته ونفث في صيت ملفوظاته فغدت واقعية همها تمثل المشاعر بلغتها الأولى المألوفة، ربما لأنه يريد أن تكون للعامة قريبهم ويعيدهم أو لأن منهجه العلمي في كتابة السير والتراجم والأحداث التاريخية كان له وقعه وتأثيره في نصوصه الشعرية مما يدل على أنه قد نبغ في النثر أكثر من الشعر وبأن هذا الأخير -على المرجح- جاء ضرورة استجابات لعالم جواني أراد أن يكتبه بكل الأنماط.

ويأتي تواتر ضمير المتصل الكاف في المقطوعة الشعرية كحجة على تعالق الوحدات اللغوية بعضها ببعض وأن قيمة كل لفظ بوصفه علامة دالة إنما تتحدد في ضوء علاقاته باللفاظ السابقة واللاحقة.

فاعذر محبا قصير الباع مغتربا

عن معهد الأنس والأحباب قد بانوا

تحدث المفارقة وهنا ويحدث الانتقال أخيرا إلى الضمير المتصل الغائب (هم) ليحقق نوعا من المشاركة الجماعية ويسقط تجربته على الآخر؛ يعلن نفسه فردا منهم؛ في موطن جديد موحد يسمى الغربة كإحالة أخرى إلى مرحلة أعمق تكتنف حياة المبدع ومن دون

شك هي مرحلة الإحساس بالنأي الحقيقي الذي بات يفصل بين المقري والجزائر فصلا تردد صداه في الفراغ الذي ظل يعيشه وكأنني به يبحث كل مرة عن فضاء يحتويه ينسيه بعضا من أثقاله ولأسف غايته غير مدركة فتجده يكثر من الأسفار آملا في استقرار ما ولو لفترة. ويعود أدراجه من جديد بين تلك وتلك ويلفي نفسه محاصرا ومقيدا فعلا بتلك؛ مشرقية كانت أم مغربية ولكنهما ليستا استقراره المرجو؛ ليستا الجزائر، ليستا تلمسان.

بلد الجدار ما أمر نواها
كلف الفؤاد بحبها وهواها.
يا عاذلي في حبها كن عاذري
يكفيك منها ماؤها وهواها

ههنا في هذه الأبيات تتجسد الإحالة بالضمائر المتصلة وبخاصة ضمير المتصل الغائب(ها) توطيدا لمسار التأويل السابق؛ ما أصعب البعد وما أمره فالوطن صار حلما يسترجع في لحظات الحيرة والسكينة والعتاب في غير مقامه لأن الشاعر معذور في شجونه ولهفته وحنينه، كيف لا واليوم أدرك طول المسافة القاتل الذي لم يعد يحتفظ بشرفات يطل من خلالها فيسمع صهيلا جزائريا أو عطرا تلمسا نيا يفوح بعقب الأصالة. وتبدو درجة التعلق الكبيرة بالوطن واضحة عند المقري لدرجة أنه يكتفي بأهون ما فيها وأيسر ما ينسب إليها(ماؤها وهواها)

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن اللغويين قد اهتموا بالبنية الإحالية للضمائر اهتماما بالغا، وذلك في أثناء تناولهم لأدوات الاتساق؛ نظرا لخطورة الدور الذي تنهض به في تحقيق التماسك النصي عبر المستوى البنائي، ولكونها علاقة دلالية لا تخضع لقيود نحوية، إلا أنها تخضع لقيود دلالية وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه¹⁵.

ويحضر الربط الوصلي باستخدام حروف العطف من بداية النص في قوله:

.....
وزادك الله يا أرض الجهاد على
.....
وصانك الله من كيد العدى وغدا

.....
وزانك لا الله بالشيخ التي بهرت
.....

إذ يلعب الواو دورا كبيرا في شد الملفوظ الثاني بالملفوظ الأول وتوسيع نمطية المخاطبة وتعزيز الوحدة التي تجمع الأبيات وتوطد بنيتها بطريقة تكشف عن أبعد السرد اللغوي عند المقري لمختلف ميزاتها. ونعلم جيدا أن حروف العطف تضي لمسة لغوية تحيل مباشرة إلى بعد فكري أعمق يلخص في وحدة الصورة التي تتمازج فيها كل الصفات المذكورة لتشكل ملفوظا أخير مؤولا هو جزائر العظمة والجمال.

كما يساهم الاستبدال المركب ههنا في تضامن الوصف البنيوي للنص الشعري؛ وهو أسلوب يضي قيمة التطور الدلالي الذي يستقيم في جل أوجهه وحالاته مع فنية التشكيل المحكم الذي يستجيب للروابط بأنواعها. إذ أن استبدال أرض الجهاد بجزائر المغرب يساهم في تماسك النص من خلال استمرارية الحديث ووحدة الموضوع الذي يكشف عن بؤرته وآفاقه في ظل بعدي الدراسة النسقي والسياقي. فهي بذلك تجمع بين عنصر لغوي أساس وعناصر توسعية تفصح عن مزايا هذه الأرض المقدسة التي ذابت في أرضيتها كل الصعوبات والفوارق وتوحدت لتتجذب هدفا واحدا بني على الجهاد ولخص في الانتصار. هكذا نلمح التنامي القيمي يوجز التداخل بين مستويات التحليل اللغوي بشكل تفرضه الصورة الواحدة التي سماها فرديناند دي سوسير العلامة *signe* بشقيها وشحنها إنما تثبت بالإيجاب في ضوء علاقاتها بالكلمات اللاحقة عليها والسابقة لها.

*يا بهجة الجهر طابت منك أزمان

وزادك الله يا أرض الجهاد عُلَى *

يفتتح هذا البيت بأسلوب النداء والمتعين بالضمير(يا)، ومن دون شك فقد تتبه البلاغيون وعلماء النحو إلى أسلوب النداء ووظائفه وأسهبوا في حديثهم حد تباين الآراء في بعض من القضايا الفرعية كما حدث بين المدرستين الشهيرتين البصرة والكوفة. ومنهم من يعتبر للنداء وظيفة مثل تنزيل القريب منزلة البعيد وتنزيل البعيد منزلة القريب خروجا عن المعنى الأصلي للنداء، ومنهم من يعتبرها غير ذلك. ونوافق الفريق الأول في محاوره هذا البيت وبخاصة في الإحاطة بالحالة النفسية التي سكنت المقري في غربته حين ترقبه لأرض

أجداده ونشأته وثقافته ؛بمعنى أنه يراها كالأمس وفي أماني المستقبل حاضرة حضورا قويا لا يترك لنا مساحة تأويلية شاسعة فوكانه في أرضه ووسط أهله لم تزعزع غربته أصل المرجعية وأصل النشأة.

فكل الوحدات ترتبط بالبيت الأول ارتباطا يرفض توهم التكرار بقدر ما يضيف ويوسع؛ من دون أن نأخذ التوسيع من باب الإضافة أو الزيادة بل من باب الفاعلية والتأثير وبخاصة أن مبدأ الاستقطاب البنيوي يكشف تداعي الصور عند المقري وتتاسله في نمطية نحوية متشابهة.

ويستمر التجلي بالنسبة للضمير المتصل (كاف المخاطب)-وردت سبع مرات- بشكل متواتر يعود على اللفظ السابق (جزائر) في جزائر الغرب ؛لأنه المركب الأول الذي تتعين بموجبه القصدية في تحديد أمجاد الجزائر تحديدا يوحي بالقرب والتواصل وهو أمر لا خلاف فيه ؛ فالمقري ابن الجزائر وابن بيئتها ومناخها وحضارتها ولا عجب أن يخاطبها مخاطبة تشخيصية ترسم حضورا لازما تقره روح المقري ووطنيته ليتغنى بها في غربته في شكل استرجاعي لا يسقط الوصف الآني ولا يفنده بقدر ما يرسخ صورة مثلى تكتمل فيها معالم القوة والبهاء:

وتسير المخاطبة التي تثني واقعة تتكاثر في ضفافها قدرات الاختبار اللغوي التي امتلكها المقري وبخاصة عندما اتخذ لنفسه منهجا تتناسل في رحابه لفاظم تعبيرية متضامنة تخضع لمنطقية التسلسل والترابط وذلك بتوافر ميكانيزمات عدة أهمها: الإحالة، والترتيب، والتكرار، والحذف، والاستبدال بوصفها إجراءات تؤسس لما يعرف بالاتساق النصي كآلية من آليات نحو النص.

ويستمر في قوله:

فكم علا فيك إسلام وإيمان

وصانك الله من كيد العدى وغدا*

إن مثل هذه التدايعات الترتيبية: أرض المغرب، أرض الجهاد، فيك إسلام وإيمان لتكشف عن منطقية التسلسل التي يفرضها وبقوة مرجع التوثيق ؛بمعنى أن تبني صورة التعميم تحتل الصدارة ليأتي التقليل اللغوي التأويلي في مرحلة ثانية فالتعين الجزئي الكاشف بدوره عن علاقة الجزء بالكل في مرحلة أخرى (علا فيك إسلام وإيمان) كإشارة إلى تلاحم أجزاء

الصورة وتوحد أبنيتها المتأقلمة مع ظروف النسيج وأبعادها التي تأخذ بالشروط والأحوال السياقية المختلفة. من أجل ذلك كله كان الانتقاء المفرداتي انتقاء شكليا دلاليا يعكس عدا تنازليا على مستوى المفهوم .

كما نلاحظ غياب الانكسار الذي يعني غياب التشويش المتعلق بالمراتب في التصوير وتبني مبدأ المنطقية في التعبير كدليل على مصداقية الوقائع وقربها الشديد من المقري ومن كل الجزائريين الذين يحفظون عزة أرضهم وبطولاتها وهممها وأعلامها.

ويستمر مدح المقري ليستمر مبدأ الترابط والتعلق:

*للنصر والعز في مغناك إيمان

وزانك الله بالشيخ الذي بهرت

إن المتأمل في البيتين السابقين يجدهما يتأسسان على استتباط لغوي دلالي لا يزال يحتفظ بمفهوم القيمة الذي توسع في الوصف وصولاً إلى التمثل والاستشهاد فقد زاد عز الجزائر ونصرها بشيخها عالم الجزائر وفقهها الشيخ سعيد قدورة (ت 1066 فزادها بريقا ولمعانا يثبت تحضر دولة وأصالتها.

وهي حجة أخرى تحسب للإجراء الترتيبي من دون أن نفصل في شرح آلياتها لأنها موضوع آخر.

إن الأمر ليتعلق بمسألة هامة تخص نزول المقري مدينة الجزائر وتونس وسوسة واتصاله بعلماء هذه المدن وهو في طريق الرحلة من المغرب صوب المشرق. وباستثناء إشارة المقري في منظومته فتح المتعال إلى أنه نزل بهذه المدن فإن بقية المصادر لم تشر إلى ذلك قط، لكن نصوص الرحلة تؤكد لنا نزوله بها واتصاله بعلمائها وتواريخ ذلك، إذ يخبرنا المقري أنه نزل بالجزائر العاصمة يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة 1027 هـ، حيث خرج إلى رأس تافورة صحبة جماعة من الأعيان منهم مفتي الحنفية الخطيب محمود بن حسين بن قرمان، والشاعر الأديب محمد بن راس العين الذي تبادل معه نظم الشعر بمناسبة هذا الاجتماع، كما التقى بعالم الجزائر وفقهها الشيخ سعيد قدورة (ت 1066هـ).

علومه أوجد العليا سليمان فاعذر محباً قصير الباع مغترباً

ويعد الحذف من ظواهر الاتساق اللغوي التي تساهم في تحليل جماليات النظام اللغوي وتفسير آلياته البلاغية. وهو لغة الإسقاط واصطلاحاً: إسقاط جزء من الكلام لدليل..

فاعذر محبا قصير الباع مغتربا

فالحذف هنا مثلا متعلق بالقارئ المخاطب أي باسم ينوب عنه ضمير المخاطب المستتر (أنت) وهو حذف لازم وإجباري إلا أن الانسجام النصي يؤول ذلك بمعرفة الدلالة في الفكر وتعين المتمثل بالخطاب فلا حاجة لذكر لأنه ملخص بإتلاف مع وصف الإحالات الخطابية السابقة.

هكذا تتوزع تقنيات الاتساق النصي وتأخذ تأويلا يؤكد على أصل الظواهر والتقنيات المنهجية فالفصل بينها هو من باب تسهيل الدراسة وتوضيحها؛ فالاتساق وصف نحوي والانسجام رؤية عميقة شارحة وهما وجهان لعملة واحدة كما يقول دي سوسير Ferdinand de Saussure عندما وضع العلاقة التي تجمع الدال بالمدلول (1857_1913).

ويمكن أن نلخص جملة التحليلات السابقة في النقاط التالية:

- يعتمد المقرري منهجية علمية في البناء الشعري تتجلى من حيث قرب المادة الموظفة من الواقع مما يجعلها أقرب إلى النثر.

- لغته بسيطة سهلة مألوفة بعيدة إلى حد كبير عن الانزياح الجمالي والتشهير أو الترميز.

- الأسلوب في هذه الأبيات المحللة يميل إلى صنف الأسلوب من الدرجة الصفر.

- تخضع المقاطع السابقة لبنية سياقية غير قابلة للتأويل لأنها تخص الأحداث واقعا

صريحا.

لا يختلف أسلوبه وهنا عن أسلوبه في النثر كالسير والتراجم لولا وجود القواعد

العروضية.

إن كان المقرري قد تبني النمط المسجوع الملون بالاستطراد مقتربا بذلك من أسلوب

الجاحظ ففيل عنه حافظ المغرب جاحظ البيان، إلا أنني سأختم هذه المناقشة بقولي فقيه

الجزائر وشاعرها الأثير الواقعي.

- 1 - الدراسات الموريسكية في الخمس والعشرين سنة الأخيرة في إسبانيا" في أعمال المؤتمر العالمي السادس للدراسات الموريسكية الأندلسية، (جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي) زغوان، سيرمدي 1995.
- 2 - نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، محمد عبد الله عنان، القاهرة 1987.
- 3 - سورية - دمشق - أتوستراد المزه - مقابل حديقة الطلائع - هاتف - 6117240 : فاكس: 6117244
- 4 - مجلة الأديب العربي/د. عبد القادر شرشار، كتاب الرحلة إلى المغرب والمشرق لأبي العباس المقري.
- 5 - المرجع نفسه.
- 6 - المرجع نفسه.
- 7 - المرجع نفسه.
- 8 - انظر المدخل اللغوي في نقد الشعر، قراءة بنيوية، د مصطفى السعدني، منشأة المعارف، دط، دت ص105.
- 9 - المرجع السابق 106.
- 10 - المرجع السابق 106_107.
- 11 - انظر علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ذ صبحي إبراهيم الفقي، ص 26.
- 12 - انظر المرجع السابق، ص 35-36.
- 13 - نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، د يحي بعبطيش، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة قسنطينة، ص445-446.
- 14 - نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، أحمد مصطفى عفيفي، 20-60
- 15 - انظر علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ذ صبحي إبراهيم الفقي، ص 26.